المحور الثامن

إشكاليّة الجماليّ والثقافيّ

س1: ثمة صراع رؤيويّ ومنهجيّ (نظريّ وإجرائيّ) بين الجماليّ والثقافيّ، هل تنظر إلى سردياتك بوصفها كياناً جمالياً تسعى فيه إلى إمتاع القارىء وإسعاده في علاقة قرائية خاصة ومستقلة، أم أنك تجتهد في أن تترك بصمتك الثقافية على قرّائك وتصدمهم بالأسئلة المرّة ليعيدوا النظر في حياتهم؟

ج1: لا أرى المسألة محزوزة بهذه الصورة فلا فرق بين الجمالي ولا التعليمي في النص، فغياب جانب سوف يرهق الجانب الأخر مع التأكيد بأنّ مفهوم التعليمي لا يعني الفرض بل يعني حرية الاختيار، عندما سألتني عن تقييمي لما أنجزته في السرد قلت لك إنّ هناك هنة عانيت منها في بداياتي وهي الذهنية، حيث كان همّي هو الترويج للفكر الماركسي باستعمال قدرتي على السرد، إنّ إيماني بحرية الإنسان وبالتطور يمنعني أن أنجز منهاجاً تعليمياً، أنا أكتب حسب مقولة الجاحظ حين يرى أنّ الأفكار مطروحة على الطرقات وعلينا أن نلتقطها، وأفكاري هي جزء من هذا الكمّ المطروح في الطريق لمن يلتقطها بحريته وباختياره، لا بأس أن أترك بصمتي على القارئ بل على العكس فهذه مسألة جميلة لكني لا أتقصّد تحقيقها، قد يكون في تقصد الكاتب لهذا الأمر نوعاً من القمع والاستلاب.

أنا لست محرضاً ثورياً بل كنت دائماً محرضاً جمالياً، ومثلما قلت الجمال الذي أعنيه هو الجمال السردي والفكري معاً، وليأخذ القارئ ما يشتهي لأنني سوف أكون عاجزاً أمام شاب يقرأني عن الرد على مسألة أكون قد كتبتها وهي تخالف ما أسلكه فعلياً في الحياة.

أما مسألة أن أصدمهم حتى يعيدوا النظر في رؤيتهم للأشياء فهذا أسعى إليه بقصد وعن سبق إصرار، فالقارئ إما أن يقبلني أو أن يرفضني ويعود للمحطة التي كان ساكناً فيها من قبل، لأنني لا أسعى إلى أن أستلب حريته في الاختيار ولكني أدفعه دفعاً لمعرفة أين تقبع حريته حتى لو كانت فيه.

س2: البنيويون يعتقدون أنّ النصّ بنية ألسنية مغلقة على ذاتها ومكتفية بذاتها، ويُميتون المؤلف، في حين يرى المشتغلون في حقل النقد الثقافيّ أنّ الجمالية هي عيب النصّ وسبب حجبه عن التأثير الثقافيّ في مجتمع القراءة، أين أنت من هذين الرأيين في محتوى تجربتك السردية الخاصة؟

ج2: أشرت في أكثر من موضع إلى موقفي من معنى ونوع النظرية المتعلقة بالسرد، أضيف إلى ذلك إن إدراك الفكرة يؤدي بالضرورة إلى تطويرها، وإن توجهها يعطي للباحث والناقد فسحة واسعة للتعامل مع النص، أما فيما يخصّ المؤلف

فأرى أنها لا تشكّل حالة مؤثرة فيما يكتب بذات القدر الذي تتركه مع الناقد. قد أتقبل فكرة موت المؤلف لكن ليس ذاك الموت الذي لا رجعة منه بل أميل إلى فكرة غياب المؤلف واختفائه وراء النص، فمن غير الممكن فصل المؤلف عن النص حتى عندما يتحول القارئ ليصير هو المؤلف، وهذا موضوع أقبله بل أميل إليه، فالمؤلف لا يمكن أن يموت لأنه هو الخالق والفاعل للنص وأثره هو المحرك لأن يصبح القارئ هو المؤلف.

أما ما يقال عن أن الجمالية هي عيب النص فتعريف الجمالية هو الذي يمكن أن يجعلنا نتفق أو نخالف هذا الرأي، فإن كان المفهوم يعني العودة إلى نهج الفن للفن فإن هذا يجرد النص من جماليته على عكس ما يراد له، فهو لا يعدو غير حالة طارئة تُمتع قليلاً لكنها تتلاشى وتغيب □ريعاً، إن الجمالية الفعلية تكمن في التكوين المتوازي من تشكيلة الشكل الجمالي مع الفكرة ومع الواقعية ومع كل عناصر العمل الأخرى، التشكيل الجمالي مطلب يـ□عى إليه النص لإيصال الفكرة والموقف الذي يـ□عى إليهما المؤلف، فليس من المفترض بأصحاب المذهب الثاني فصل المعنى والمفهوم الجمالي بمشرط حاد عن إكتمالية النص، أعتقد أن من قرّاء المادية الجدلية والديالكتيك يـ□هل عليه فهم ضرورات تكامل العمل بمكوناته الفنية من حيث الفكرة والجمال، هل تعرف أن فيروز الجميلة وصاحبة أجمل صوت تكلم العربية منذ نشأت هذه اللغة لا يمكن أن تكون أغنياتها حاضرة بكل هذا الثقل عند كل الأجيال إلا لاكتماله بمو□يقى رحبانية مميزة، وبكلمات تشكّل مجتمعة توليفة مذهلة □مها فيروز. أميل إلى جمالية النص بقدر ما أ□عى لا□تعمال هذه الجمالية في خلق الفكرة.

س3: لعلّ من الميزات التي يمكن لي أن أوشّرها في نصوصك السردية هي التباس الجماليّ بالثقافيّ بطريقة عفوية رحبة ومنفتحة وغير قصدية، هل ترى معي ذلك؟ وكيف يمكن أن تفسّره لي؟

ج3: هي كذلك لقد نشأت على تذوق الجمال والإحـ□اس به بماديته المختفية خلف النص أو اللحن أو الصورة، ونشأت أيضاً على إيمانات وقناعات مبدئية ر□خة أ□□ـها العدالة الاجتماعية وحرية البشر ومحاربة التـ□لط والظلم والتخلف، هذه التشكيلة التي تختلط بذاتي لا بد لها أن تنعكس بتلقائية على ما أكتب مثلما تنعكس على الأشياء التي أعيشها، فتأتي من خلال كتاباتي بعفوية غير قصدية "بعض الشيء في الثقافي أكثر من الجمالي". هذه البعض لإضحاك القارئ فقط.

س4: هل تعتقد أنّ نصوصك القصصية والروائية قادرة بما تحمله من رسالة ثقافية على التأثير في مجتمع القراءة نحو مقاصدها وأهدافها؟

ج4: كل ما يقرأه الإنـ□ان يؤثر فيه، إن عملية القراءة بحد ذاتها هي عملية تأثر بالمقروء بغض النظر عن نوع هذا التأثر، وإن المـ□ألة التفاعلية التي يعيشها القارئ مع النص ومدى تقبله لها تصير في مخزون ذاكرته وثقافته، وعند لزومها تخرج من

هذا المخزون على صورة □لوك، بلا شك إن من يقرأني □وف يكون لي في وجدانه ومخزونه حيزاً، وإن □تعماله لهذا المخزون الذي يخصني إن كان يتفق مع رؤاي فإنه لا بد أن يكون مؤثراً.

س5: يرى نقّاد المنهج الثقافيّ أن النصوص العربية الحداثية بمجملها لا تستطيع أن تغيّر وجهات نظر القرّاء بالاتجاه الصحيح، لأنّها تنطوي على حداثة رجعية تسهم سلبياً في صنع ثقافة مضادّة، كيف تنظر إلى نصوصك في هذا السياق؟

ج5: بدءاً من التعريف أنا لا أتفق مع الآلية التي يتحدث بها نقاد النهج الفكري عن فكرة التغيير في وجهات النظر، لأن هناك عوامل أخرى كثيرة م□اعدة تدفع إلى التغيير، ما يحدث اليوم من □تشراس عقائدي متخلف وخلق مئات الجبهات المتطرفة في بضع □نوات لم تأت بناءً على قراءة النصوص المتخلفة فقط، ففضلاً عن ذلك جاءت نتيجة لتراكم عوالم اجتماعية واقتصادية وفكرية منحطة في مجتمعاتنا، إنّ أيّ فكر يخالف الرجعية والتخلف ويتماشى مع ضرورات تقدم العالم إلى الأمام ومع الحضارة ي□تطيع أن يصنع ثقافة مضادة، إنّ النصوص العربية ما زالت تحتوي ثقافة رجعية وفي ذات الوقت صارت تنتج ثقافة تقدمية، وأنا في هذا الموقع أعتقد أنّ ما لم يأت بالتغيير حتى الآن هو وحشية الطبقات الحاكمة في حروبهم ضد شعوبهم وضد الفقراء، وفي أدواتهم التي يملكونها لإبقاء الإ□ان العربي مهزوماً. إنّ الأدوات التي تملكها و□تعملها ال□لطة والطبقات المُ□تغلة لكدح وتعب الفقراء هي التي تؤخر بل تؤجل التغيير.

س6: ما هي الجماليات التي تعتقد أنّ نصوصك القصصية والروائية تنشغل بها بخصوصية لا تشتغل عليها نصوص غيرك، وهل لهذه الجماليات وظيفة ثقافية مؤازرة لوظيفتها الجمالية على صعيد القراءة والتلقي؟

ج6: لا أتقصّد في الكتابة أن أكون غير ما أنا كائن عليه، يتلبّ□ني دائماً هاجس في م□ألة جمالية النص و□عى إلى تحقيقه باللغة والوصف، وأعتقد أنّ هذا الأمر أضحى □لوكاً من □لوكاتي الحياتية العامة، عند إصدار عمل جديد الملاحظة الأولى التي تشغلني عند محاورة العمل مع شخص يكمن في رغبتي في معرفة هل كان العمل مشوقاً؟ ألم يكن مملاً وثقيلاً؟ وذلك قبل أن أتطرق إلى الحديث عن الموضوع أو الفكرة، يهمني في البدء أن أكون قد وُفقت في جذب القارئ إليّ، وهذا لا يكون إلا بناءً على محاور جمالية النص في اللغة والوصف وال□رد، إنّ اكتمال هذه الحالة م□ألة أعنى بها كثيراً في كل ما أكتبه لأنها الدافع الذي ي□اعدني في الوصول إلى المتلقي بالصورة التي أريد أن أنقلها له.

س7: مصائر معظم شخصياتك تنتهي نهاية سلبية (وربّما مأساوية أحياناً)، ما علاقة هذه الخاصية بالجماليّ من جهة، والثقافيّ من جهة أخرى؟

ج7: إنّ الجمالية لا تعني بالضرورة إحياء الإيجابية في الـ□رد، الجمالية مـ□ألة تتعدى ذلك وهي أكثر عمقاً من تجميل الصورة والحدث، فهي تقبع في متن العمل، وفي النص من خلال تشكله المتكامل بتفاصيله التي يتوجب رسمها بما يليق بذوق القارئ، لا يمكن أن تمنع إنسـ□اناً منعزلاً ومهزوماً من الانتحار إن كان يعي ذلك ويرغب به، قصص مثل الحرب والسـ□لام وقصة مثل الجريمة والعقاب كلها ذات دلالات نفسـ□ية دموية سـ□واءً أكانت عامةً مثلما هي في حرب وسـ□لام تولسـ□توي، أو خاصةً مثلما هي في حال الجريمة والعقاب لدسـ□توفسـ□كي.

برأيي إنّ هذين العملين من أعظم الأعمال الإنسـ□انية وبلا شك أجملها، إنّ الفكرة التي يدور حولها العمل هي الحالة الجمالية التي تتلبس النص على الرغم من مأسـ□اوية الأحداث التي فيها، منذ أن قرأت الجريمة والعقاب وأنا على اقتناع مريح بأنّ عقاب الإنسـ□ان المخطئ وثواب الصالح ينالهما على الأرض وليس في أي مكان أخر، في هذا الفهم حالة جمالية سـ□اعدتني على معايشة الحياة والآخرين براحة، يمكن أن أقول إنّ المأسـ□اة في بعض أعمالي غائبة على الرغم من مأسـ□اوية الأحداث، فأنا لا أرى أنّ نهايات شخصياتي سـ□لبية أو مأسـ□اوية بالمجمل بل إنّ كثيرها مفرح، أو لنقل إنّها بمجملها ذات مصير يلتبس فيها التصنيف في هذا الجانب، لأنها تكون أحياناً بنهايات مفتوحة لا يمكننا الحكم عليها إلا حسـ□ب رؤية القارئ الخاصة وفهمه لأسـ□لوب معالجة الحالة، وفي كثير منها تكون النهايات سـ□تشرافية يمكن أن تجد ذلك في (ورقة التوت)، (الشندغة)، (حكاية سـ□مها الحب)، وبالتأكيد في (ماري روز تعبر مدينة الشمس).

س8: بالنظر لانحسار القراءة على نحو مفجع في مجتمعاتنا العربية أجد أنّ الحديث عن إشكالية الجماليّ والثقافيّ في الأدب العربيّ الحديث مبالغ فيها بعض الشيء، فالقارىء العربيّ على ندرته هو قارىء سياحيّ لا يفكّر إلّا بالإثارة السريعة، وعليه لا يمكن توقّع مجتمع قرائيّ بمستوى التعاطي مع حقيقة هذه الإشكالية، ما رأيك؟

ج8: لا أتفق مع تعريف الانحسـ□ار أميل إلى تعريف آخر هو تغيير الأسـ□لوب، في الأسـ□اس المجتمعات العربية مجتمعات غير قارئة وهذه حقيقة إحصائية وقديمة، أعني بالقدم الجيل أو الجيلين السـ□ابقين للوقت الحالي، نجيب محفوظ صاحب نوبل لم يكن يُطبع له أكثر من ثلاث آلاف نسـ□خة من رواية جديدة له، في حين إنّ إحسـ□ان عبد القدوس كان يُطبع لرواياته المفلمنة سـ□بع آلاف نسـ□خة.

تحول الآن أسـ□لوب القراءة إلى تكنولوجيا النت والكومبيوتر التي صنعت شكلاً جديداً للقراءة، في تقديري إنّ هذه التكنولوجيا وسّـ□عت من آفاق القراءة وصنعت جيلاً

جديداً قارئاً، لا أريد أن أنقل رؤيا متفائلة بل حقيقة ملموسة، شكل ما يقرأه هذا الجيل هو ما يفرض عليه أن يكون قارئاً نهاياً يبحث عن الإثارة السريعة، لكنه في الوقت ذاته هو جيل صار يتعامل مع مفهوم القراءة وهذه مسألة كانت شبه معدومة في الماضي.

إنّ هذا الشكل من التفاعل القرائي سوف يدفع بهذا الجيل دفعاً للانهماك أكثر في البحث وفي الرغبة في المعرفة، وفي السعي نحو البحث عن إجابات سهلة لأسئلة كبيرة كان في الماضي آباؤنا أشباه الأميين هم من يجيبون عنها لنا.

س9: المجتمعات العربية مجتمعات مرتبكة ومتخلفة ورجعية في الكثير من سياقاتها الثقافية والحضارية، فماذا يمكن أن تفعل نصوص سردية جمالية للتأثير في وسط من هذا النوع؟ هل القارئ يبحث عن جماليات في قراءته أم يبحث عن جواب ثقافيّ لأزماته التي لا تقف عند حدّ معين؟

ج9: في زمننا الحاضر ومع شدة ودموية التخلف الذي يتلبّس مجتمعاتنا العربية أجد أن ما يليق أكثر بتوصيف المشهد الثقافي الاجتماعي هو الارتباك، إن تحولنا إلى حالة الارتباك في قناعتي خطوة مهمة إلى الأمام فهي مرحلة إعادة النظر ومرحلة وضع الأسئلة ومرحلة البحث والاكتشاف، إنّ هبة التخلّف الفكري والعقائدي التي تجتاحنا هي حالات النزع الأخير للتخلف والرجعية، منذ أن بدأنا في جدلنا الفكري عربياً وإسلامياً منذ أيام المعتزلة ومروراً بأبن رشد لم تصل حدّة الصراع إلى هذا المستوى من الدموية والعنف، هذه إشارات تدلل بوضوح على يأس أصحاب الفكر الظلامي وعجزهم عن مواجهة العصر، بعيداً عن المؤثرات الخارجية التي دفعت إلى زيادة حدّة هذه الحالات، إلا أنها في حقيقتها نابعة من واقع وفكر متخلف، وهذا الواقع لم يعد أمامه غير جدود عظيمة تمنعه من مواصلة السير أو التغيير.

ما هو مطلوب من كل حالة تقدمية ومخالفة لهذا النهج هو إعلاء الصوت بالحد الأدنى، أن تشعل شمعة على أقل تقدير. هذا هو الدور الذي يجب أن يقوم به المفكرون والمثقفون والفنانون وكل من هم على علاقة مع العصر والحضارة، فلربما يصنعون إجابات على التساؤلات الصعبة أو يساعدون في صُنع أسئلة قابلة للإجابة.

س10: ما هي فُرص تجلّي الجماليّ والثقافيّ في تجربتك السردية على مستوى النوع السرديّ؟ أرى شخصياً أنّ القصة القصيرة تستجيب للجماليّ أكثر، في حين تستجيب الرواية للثقافيّ على نحو مميّز، ما رأيك بهذا الاستنتاج النقديّ، وكيف تبرّره؟

ج10: استنتاج واقعي يتمثل في أنّ إبراز الثقافي في السرد يحتاج إلى مساحة تعطي للحوار والنقاش وحتى الاختلاف هذه المساحة توفرها الرواية من هذا الجانب لكن من دون أن تتخصص فيه وتحتكره، مثلما لا يمكن أن تحتكر القصة الجمالي،

فالجمالي ضرورة أ□□ية في الرواية مثلما أن الثقافي ضروري في القصة. ها نحن نعود إلى □احة الجدل من جديد، قد يكون من أ□باب نشوء فن الرواية هو الم□احة التي يمكن أن ت□تغلها لتأ□يس الفكرة ونقيضها، وفي كونها منبراً مفتوحاً للحوار بناءً على اختلاف شخوصها وبيئاتهم.